عبد الرحمن محمد عبد الماجد (ودالكبيدة)

وسطية الإسلام في التصوف

عبد الرحمن محمد عبد الماجد ود الكبيدة

وسطية الإسلام فى التصوف

فهرسة دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة.
المؤلف: عبد الرحمن محمد عبد الماجد (ود الكبيدة).
كتاب: وسطية الإسلام فى التصوف.
مقاس: ٦٧ ص، ١٤ × ٢١ سم.
رقم الإيداع: ١١٦١٨ – ٢٠١٢ م.
رقم قومى: ٧٤١٢٧٠ C.
١- دراسات إسلامية.
٢- وسطية الإسلام.

قال تعالى:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

البقرة ١٤٣.

صدق الله العظيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(أنتم شهداء الله فى الأرض)

صحيح البخارى، كتاب الجنائز، ٨٥ باب ثناء الناس على الميت، ص ٢٣٧، حديث رقم ١٣٦٧.

صفى منهج الصوفى وابتهج
وتوسطت أخلاقه نهجا
فى سيره، وقد هذَّب المهج
يشهد بأن الحق قد بلج

بسم الله الرحمن الرحيم

إفتتاحـية

الحمد لله الذى أنزل إلينا القرءان العظيم وهدانا به إلى دين الإسلام القويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى إلى دار النعيم، وعلى آله وصحبه أتم الصلوات والتسليم. وبعد.

تأرجحت البشرية فى فكر إلحادى مادى قذف بها بين رأسمالية جائرة واشتراكية حائرة. وكان القاسم المشترك بينهما الأساس المادى الإلحادى لتفسير كل الظواهر الإنسانية: الاجتماعية، الاقتصادية، النفسية، الفكرية، الأدبية، الفنية والسياسية.

ثم فشلت النظرية الاشتراكية وتفككت الدولة التى حاولت تطبيقها كل من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، ودول شرق أوروبا، وأصبحت أثراً بعد عين. واليوم تعانى الرأسمالية التفكك الروحى والاجتماعى والاقتصادى وتشكيك أهلها فى جدوى نظريتها التى أصبح الغنى فيها أكثر غنىً والفقير أكثر فقراً، فتحرك الشارع الغربى محتجاً احتجاجاً مثلته حركة: «احتلوا وول استريت». وهذه وقفة فى وجه الرأسمالية التى جارت وأكلت بنيها وشبابها.

وكل هذا التخبط الغربى سببه الغلو والتطرف. حيث أخذت كل من الرأسمالية والاشتراكية بطرف مغاير للآخر ونقيض له، واشتطت كل واحدة من هاتين النظريتين فى اتجاهها. وفات عليهما اعتبار الإسلام الذى يأخذ الوسط العدل من الاتجاهات، مراعياً تكوين الإنسان الذى يجمع بين المادة والروح. وهذه هى الوسطية التى امتدح بها المولى

عز وجل المسلمين بقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. (البقرة ١٤٣).

ونحن فى هذه الدراسة المختصرة نتناول هذه الوسطية مع التركيز عليها فى التصوف الإسلامى.

وتناول هذا الموضوع من زاوية الصوفية والتصوف ليس مصادرة لوسطية غيرهم من الفرق الإسلامية، إنما هو بيان وتأكيد بأن التصوف رافد أساسى من روافد الوسطية من بين التيارات الإسلامية العديدة من أصناف أهل السنة والجماعة، وأكثرهم – بخلاف العلماء – ممن يسميه الصوفية حشو الجنة، وهم عامة المسلمين الذين اعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة وقلدوهم فى فروع الحلال والحرام.

والله الهادى إلى السبيل

عبد الرحمن محمد عبد الماجد (ود الكبيدة)

الفصل الأول: الوسطية والشهادة فى الإسلام عامة

المبحث الأول: الوسطية

أوجد الله تعالى الإنسان على كوكب الأرض بمحض اختيار المشيئة الإلهية، وذلك تفضلاً منه سبحانه وتعالى، حيث كل مخلوق أو حادث هو جائز الوجود. إذاً فبالكرم الإلهى وجدنا وخلقنا على الأرض: قال الله عز وجل: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ }. (الحجر ٢٨ ، ٢٩)

وهذا السجود الذى أمرت به الملائكة هو سجود تحية وتكرمة لابن آدم، لا سجود عبادة لأبينا آدم عليه السلام. وليس فيه من العبادة إلّا طاعة الأمر الإلهى. ثم هو فوق هذا وذاك أمر إلهى بالسجود، أمر يجب تنفيذه بغير توقف أو جدال. فطاعة الله عز وجل لا يسبقها التبرير العقلى، بل يأتى إعمال العقل بعد الطاعة وتنفيذ الأمر، وذلك بحثاً عن أسرار هذا الأمر وتلك العبادة.

ويكتسب الإنسان من إيجاده على الأرض عدة منح إلهية، أهمها:

١ـ الخلافة:

لقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يجعل على الأرض خليفة له. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}. (البقرة ٣٠)

فخلافة الإنسان لربه على الأرض لا تشبه خلافة الإنسان لأخيه الإنسان، فالقياس هنا ممتنع حيث يخلف الإنسان أخاه الإنسان عند غياب المخلوف؛ أما خلافة الإنسان لربه تعنى تفويضه من الله تعالى للقيام بأمر الله مع الوجود الأزلى والأبدى لواجب الوجود. فالله تعالى شهيد على عمل الإنسان ورقيب عليه فى هذا الاستخلاف. فالإنسان يقوم بأعباء الخلافة تنفيذا للأمر الإلهى لا افتخاراً بالخلافة، ولا استعلاءً بها على بنى جلدته.

٢ـ العبادة والمعرفة:

ولا يتم هذا الاستخلاف إلّا بعبادة الإنسان لربه، والعبادة تعنى الخضوع لله على وجه التعظيم. فالعبادة تعنى الخضوع والتذلل، يقولون طريق معبد أى ذلول، وتعبيد الطريق تذليله ليسهل السير عليه.

(**نكتة** يدهشنى تعريف «المعجم الوسيط» لنبات الطرنشول بـ «عبّاد الشمس»، وذلك لأنها زهرة تتجه إلى أشعة الشمس على الدوام. ولا توجد مخلوقات مِنْ بينها مَنْ لا يعبد الله إلّا الإنسان الذى منح الاختيار أن يعبد أو لا يعبد، أما بقية الحادثات فهى تعبد الله تعالى وتسبح له: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (الإسراء ٤٤)؛ فالصحيح تسمية هذه الزهرة بزهرة الشمس وليس «عبّاد الشمس- وبصيغة المبالغة !») .

وفى العبادة يكمن تحمل التكاليف الإلهية.

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. (الذاريات ٥٦) قال القرطبى: ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً. وقال الصاوى:[١] اللام فى «ليعبدون» للغاية والعاقبة، لا للعلة الباعثة لأن الله لا يبعثه شئ على شئ. ولا ينافى ذلك عدم عبادة الكافرين لأن الغاية لا يلزم وجودها كما تقول بريت القلم لأكتب به، فإنك قد لا تكتب به. قال مجاهد: إلّا ليعرفونى، قال الثعلبى: وهذا قول حسن، لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. [٢]

ولأداء مهمة الخلافة والعبادة والمعرفة فقد جهز الخالق الإنسان بأدوات التكليف من حواس السمع والبصر والعقل المميز للخير والشر، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} (الإنسان ٢، ٣).

وعبادة الله عز وجل تتطلب شكره وطاعته وفقاً لمعرفة شرعه الذى تعبدنا به. وحياة الإنسان – حركاته وسكناته – كلها عبادة لله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣). فالأكل عادة، ولكنها عادة تنال فضل العبادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ..... فالمؤمن يؤجر فى أمره كله، حتى يؤجر فى اللقمة يرفعها إلى في امرأته» [٣] . فالأكل الذى هو عادة يتحول أيضاً إلى عبادة، وذلك بالأكل بنية تقوية البدن لعبادة الله تعالى.

٣- الهداية:

اقتضت الرحمة الإلهية أن تتكفل بهداية البشر بعد نزول أبينا آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}. (البقرة ٣٨).

وصدق المولى عز وجل وعده، فتوالت الهداية الإلهية بمجئ الرسل للبشرية، قال عز وجل: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}. (المؤمنون ٤٤).

ولإتمام نعمة الله بالخلافة فقد توجت الهداية بالإسلام: قال تعالى: {اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلْيكُمْ نِعْمَتِى ورَضِيتُ لكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً} (المائدة ٣)؛ وقال عز وجل: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}. (الحج ٧٨).

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا)، هذا اسمنا فى الكتب السماوية من قبل وفى هذا القرءان الكريم. قال أحمد ابن حجر الهيتمى: «إن الله سمى هذه الأمة مسلمين فى أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وفى التوراة والإنجيل وسائر كتبه المنزلة، وفى القرءان، وأنه اختصهم بهذا الاسم دون سائر الأمم». [٤]

ولقد قامت تعاليم الدين الإسلامى على الوسطية والشهادة.

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. (البقرة ١٤٣).

(كذلك) اسم إشارة عائد على الهداية، أى (كما هديناكم إلى الإسلام). (جعلناكم) أى صيرناكم، (وسطاً). الوسط فى الأصل هو المكان الذى استوت إليه جميع الجهات، ثم أطلق وأريد منه الخصال الحميدة، فالمعنى أنتم أصحاب خصال حميدة. (٥)

قال القرطبى: كما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطاً، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط العدل. {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ}. (المائدة ٨٩). (الإطعام الأوسط هو إطعام بين شدة المعسر ورخاء الموسر)

فالإسلام هو المحجة البيضاء، ليلها كنهارها. وقد صنع الإسلام من المسلمين أمة وسطاً تنهج كما يلى:

أ- تتصرف فى إنفاقها بوسطية واعتدال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}. (الفرقان ٦٧). وقال تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}. (الإسراء ٢٩).

ب- يتوازن تعاملهم الإقتصادى والاجتماعى بحيث لا يظلمون

غيرهم ولا يعرضون أنفسهم لظلم غيرهم لهم: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ}. (البقرة ٢٧٩).

جـ - وسطيتهم فى السلم والحرب: قال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} (الأنفال ٦٠). وقال عز وجل: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة ١٩٠). وبين القتال والاستعداد له وبين عدم الاعتداء يكمن وسطية التعامل مع العدو، حيث لا تفريط ولا إفراط فى نيل الحقوق وأداء الواجبات والدفاع عن الدعوة الإسلامية.

د- وتتوازن حتى عبادتهم فتتخذ سبيلاً بين السرية التى لا تظهر كلمة الله وبين الصخب الذى لا يجمع الروح على الخشوع والتبتل، قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}. (الإسراء ١١٠).

وقد جمع رجال الفكر الإسلامى مبادئ الوسطية، وهى ضوابط عديدة، ولكننا نذكر منها الآتى:

١- ملائمة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.
٢- التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة. ويتبع ذلك التشديد في الأصول والكليات، والتيسير في الفروع والجزئيات.
٣- الحرص على الجوهر قبل الشكل، وعلى الباطن قبل الظاهر، وعلى أعمال القلوب قبل أعمال الجوارح.
٤- دعوة المسلمين بالحكمة، وحوار الآخرين بالحسنى. ويتبع ذلك الجمع بين الولاء للمؤمنين، والتسامح مع المخالفين.
٥- التعاون بين الفئات الإسلامية في المتفق عليه، والتسامح في المختلف فيه.
٦- اتخاذ منهج التدرج الحكيم في الدعوة والتعليم والإفتاء والتغيير.
٧- الحرص على البناء لا الهدم، وعلى الجمع لا التفريق، وعلى القرب لا المباعدة.
٨- الاستفادة بأفضل ما في تراثنا كله: من عقلانية المتكلمين، وروحانية المتصوفين، واتباع الأثريين، وانضباط الفقهاء والأصوليين. ويستتبع ذلك الجمع بين استلهام الماضي، ومعايشة الحاضر، واستشراف المستقبل.

فالوسطية منشؤها أنه تعالى لم يجعل علينا فى الدين من حرج فلم يكلفنا تكاليف نعجز عن القيام بها أو ترهق تكويننا المادى والروحى. قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا

كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا}. (البقرة ٢٨٦). بل جعلنا المولى عز وجل ننشط بين المادية والروحانية، فلا نركن إلى أحداهما ركوناً نتلف به الأخرى، فيأخذ المسلم نصيبه من جسدية وروحانية، قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}. (القصص ٧٧).

وهذه الوسطية هى التى جعلت المسلمين عدل فى شهاداتهم.

المبحث الثانى: الشهادة

قبل أن نبين شهادتنا على الغير ينبغى أن نبين أنواع الشهادات.

هنالك شهادة لله عز وجل وحده، وهى تتسامى على المقارنة بين شهادات البشرية. وهى الشهادة بمعنى العلم وحضور الحدث ومشاهدته، فشهادة الله تعالى من علمه الذى لا تحده حدود الزمان ولا المكان، فهو سبحانه وتعالى عالم ومطلع على كل شئ بعلم قديم هو صفة له عز وجل، والآيات القرءانية الدالة على شهادته كثيرة، ويكفينا منها قوله تعالى:

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}. (فصلت ٥٣).

مطلب ١) أنواع الشهادات البشرية:

أما البشر فلهم منازع كثيرة وأغراض متنوعة وسعى شتى، ولهذا تتنوع شهادات البشر بحسب مفهوم الشهادة، ونذكر منها الآتى:

أ) الشهادة بمعنى العلم والعقل:

{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء}. (المائدة ٤٤). أى كانوا عالمين بما فيه من أحكام وتعاليم. نلاحظ أنه لما أسلم هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار نالوا شهادة العلم فأصبحوا شهداء، علماء بكتاب ربهم وشرعه وأحكامه.

ب) الشهادة بمعنى حضور الحدث:

١- {قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}. (المائدة ١١٣). أى نريد أن نكون من الحاضرين حدوثها، المشاهدين لها والشاهدين على صدق النبى بها.

٢- ومن معانى الشهادة بالحضور الجسدى قوله تعالى: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} (المائدة ١١٧). أى لما كنت أنا حاضراً بجسدى تسنى لى الشهادة على أفعالهم وأقوالهم، فلما غبت عنهم غابت شهادتى عليهم وبقيت شهادتك ورقابتك عليهم.

٣- {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. (البقرة ٢٦٠).

فالمشاهدة تطمئن القلوب، أى تزيدها إيماناً، والإيمان يزيد وينقص، ولكن إيمان الأنبياء لا ينقص، بل يزيد. كما أن رؤية العيان تسكن اضطراب القلب واشتياقه إلى المعاينة. غير أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يطلب الرؤية بسبب نقص إيمانه – وحاشاه ذلك، فقد ذكرنا أن إيمان الأنبياء لا ينقص، بل هو فى ازدياد مطرد؛ فسيدنا

إبراهيم مؤمن بأصل الإحياء وبقدرة الله تعالى على الإحياء، فهو قد استدل به على النمروذ فى قوله تعالى: {إِذْ قَالَ إِبراهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ}. (البقرة ٢٥٨)؛ ولهذا لم يقل: «أرنى مقدرتك على إحياء الموتى»، بل طلب علم كيفية الإحياء، فقال: «أرنى كيف تحيى الموتى».

وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم». [٦] قيل أن هذا غاية التنزيه لسيدنا إبرهيم، فالمعنى: (لوكان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، ولما علمتم أنى لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم لم يشك)، وقد رجح إبراهيم على نفسه تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم.

جـ) الشهادة بمعنى الإقرار والاعتراف:

١- {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}. (المائدة ٨٣). أى أكتبنا من المقرين لرسولك والمعترفين والمؤمنين برسالته.

٢- {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}. (التوبة ١٧). أى مقرين ومعترفين بكفرهم وضلالهم، وذلك بعدم إعمارهم المساجد.

د) الشهادة بمعنى قتيل الحرب:

فالشهيد هو الشاهد أو الحاضر للجنة، لأن روحه تشهد الجنة وهو مشهود له بالجنة.

قال الله عز وجل: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}. (آل عمران ١٤٠).

مطلب ٢) شهادة المرء على غيره:

قال القرطبى أيضاً: (أخرج البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة وأحمد: يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ. وذكر الحديث مطولاً ابن المبارك بمعناه، وفيه: «فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب سبحانه: كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون ربنا بعثت فينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا، فشهدنا بما عهدت إلينا، فيقول الرب: صدقوا. فذلك قوله عز وجل: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» – والوسط العدل – «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا». وقال أخرجه ابن المبارك ١٥٩٨، والطبرى ٢٢٠٠). [٧]

عن أنس رضى الله عنه يقول: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً،

فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «وجبت». ثم مروا بأخرى فأُثنوا عليها شراً فقال: «وجبت». فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما وجبت ؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض». [٨] وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن بعضكم على بعض شهداء». [٩]

قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى فى كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أولاً مكاناً، وإن كنا آخراً زماناً، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة». [١٠] وهذا دليل على أنه لا يشهد إلّا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلّا أن يكون عدولاً. وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به؛ لأنهم إذا كانوا عدولاً شهدوا على الناس. فكل عصر شهيد على من بعده؛ فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين، وقول التابعين على من بعدهم. وإذا جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبولهم. ولا معنى لقول من قال: أريد به جميع الأمة؛ لأنه حينئذٍ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة. وبيان هذا فى كتب أصول الفقه.

نلنا شهادتنا على الغير بموجب وسطيتنا. الوسط هو العدل، ومن كان فى الوسط يدرك الطرفين من يسراه ويمناه، لأنه يكون أقدر على رؤية الجانبين من موقعه الوسط. والجانبان هنا هما جانب التفريط وجانب الإفراط. فالتفريط نجده لدى اليهود، بينما الإفراط نجده عند

النصارى. فرط اليهود بتهاونهم وعدم إيمانهم بالرسل، وتهاونهم فى تنفيذ أوامر رسلهم لهم. وبالإفراط اشتط النصارى وغلوا فى دينهم بوصفهم سيدنا عيسى وأمه عليهما السلام بالألوهية.

أما شهادة النبى صلى الله عليه وسلم على أمته فقد جاء فيها قوله تعالى: {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. (البقرة ١٤٣). وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا}. (النساء ٤١) وشهادته علينا صلى الله عليه وسلم وهو فى دار الدنيا بين أصحابه فى مباشرته هديهم وتعليمهم، وفى استغفاره للمسئ؛ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}. (النساء ٦٤) كما أنه وهو فى البرزخ له شهادة على الأحياء من قومه الذين أتوا بعد صحابته إلى يوم الدين، وذلك فى الحديث الشريف: «حياتى خير لكم تحدثون وتحدث لكم، ووفاتى خير لكم تعرض على أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم». (١١)

مطلب ٣) شهادة المسلم على نفسه:

فالدخول فى الإسلام يبدأ بالشهادة. أى بالنطق بشهادة الإسلام وهى قول المسلم: (أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله). وتتكرر هذه الشهادة على الملأ أربعين مرة فى اليوم فى آذان

الصلوات الخمس، هذا عدا تكرارها فى الإقامة وداخل الصلاة فى التشهد. فيوم المسلم مفعم بترديد شهادته بالإسلام. ففى آذان الصلاة تتأكد خصوصية الشهادة بالنسبة للفرد، حيث يردد المؤذن الشهادة سراً أولاً، مقراً بها بينه وبين نفسه، ثم يجهر بها على الملأ مع جهره ببقية عبارات الآذان الذى يبدأ بالتكبير جهراً ويختم بالتكبير وشهادة الوحدانية جهراً.

وينبنى على هذه الشهادة القيام بالعبادات والمعاملات وفقاً لتعاليم القرءان الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم. فامتثال الأمر فى الإسلام ينشأ عن ثبات وقوة المعتقد، وهو الإيمان الذى فوق الإسلام، وقد رتب الله عز وجل هذا الأمر فى قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. (الحجرات ١٤). وعن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الإسلام علانية والإيمان فى القلب». [١٢]

الفصل الثانى: الوسطية والشهادة فى التصوف

إن الوسطية حقيقة ثابتة فى المنهج الصوفى وظاهرة ظهوراً لا يخفى على من يشاهد السلوك الصوفى أو على دارس التصوف، كما أنه بالتصوف تظهر السمات الأساسية لوسطية الإسلام. وفى البدء ينبغى أن نعرف ما هو التصوف.

المبحث الأول: تعريف التصوف

جاء فى تعريف التصوف الإسلامى أنه: «علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سواه»، فمقصد علم التصوف هو تصفية القلب وإصلاحه. فالتصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الباطن لنيل السعادة الأبدية. (١٣) فالتصوف هو علم فى السير على مراتب ومنازل السلوك إلى ملك الملوك. ومراتب السلوك ثلاثة، ذكرها الشيخ العز بن عبد السلام قائلاً: «الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين. ثم الإيمان أول مراتب القلب لخاصة المؤمنين. ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين». (١٤)

وقد جاءت هذه المراتب والمقامات مؤصلة فى الحديث الشريف: الذى رواه سيدنا عمر رضى الله عنه، والسائل سيدنا جبريل عليه السلام: «... فقال يا محمد ! أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله

وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فاخبرنى عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فاخبرنى عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (١٥)

فالتصوف من علوم الأخلاق الإسلامية، وقد اعتبر عند المسلمين من العلوم الشرعية، أى العلوم التى تستمد من القرءان والسنة. ولهذا عرفه ابن خلدون بقوله: «علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين....». (١٦)

فلا غرو أن قال الشيخ محمد بن على الكتانى فى تعريف التصوف بقوله: «التصوف خلق، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء». (١٧)

فمن أخلاق التصوف القائمة على الإحسان نستمد العدلية والوسطية، ومن تواضع عاليهم ونزوله للقبول بأدناهم، ومن تطلع أدناهم للعلو وتقليد أعلاهم تتحقق بينهم الوسطية؛ وقد قال الإمام على كرم الله وجهه: «عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى يرتفع إليه التالى». (١٨).

ومن المشاهدة الإحسانية فى التصوف نستمد الشهادة.

المبحث الثانى: وسطية الإسلام فى التصوف

يشتهر التصوف بأنه مذهب يقوم على الوسطية والتسامح مع الخلق، وعلى شهادة الحق بالحق.

وقد انتهج الصوفية نهج الوسطية فى كل شؤونهم، من عبادات أو عادات أو معاملات مع غيرهم، ويمكننا تلمس وسطيتهم فيما يلى:

مطلب ١) وسطية الصوفية فى مجال العبادة:

١- الوسطية فى الدعاء والطلب، قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}. (الأنبياء ٩٠). وقال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}. (الأعراف ٥٦). قيل لو وزن خوف العارف ورجاؤه لاستويا. وتكلم الصوفية كثيراً فى هذا المجال. قال حاتم الأصم: «لكل شئ زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر الأمل». وقال عبد الله بن المبارك إن الذى يهيج الخوف حتى يسكن فى القلب دوام المراقبة فى السر والعلن. [١٩] قال إبراهيم النصراباذى: «الرجاء يحركك إلى الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصى، والمراقبة تؤدى بك إلى طرق الحقائق». [٢٠]

٢- الوسطية فى عدم ضجرهم لما يفتقدون وعدم فرحهم بما يجدون، فقالوا: الزهد فى قوله تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. (الحديد ٢٣). فالزهد عندهم هو عدم الفرح بإيجاد زخرف الدنيا، وعدم الحزن على فقد هذا الزخرف.

٣- وسطيتهم فى التوكل بين التهاون والاتكال وبين التهافت والابتذال، أى بين ترك الأسباب بالكلية وبين الاستمساك بها وحدها، فهى وسطية الحديث: «قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل ؟ قال: اعقلها وتوكل». [٢١] سئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل، فقال: أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها. [٢٢] يقول الصوفية: «المكاسب لا تمنع التفويض والتوكل إذا لم تضيعهما فى كسبك. وأدب المكاسب أن لا تمنعك عن الفرائض، وأن لا ترى رزقك منها، وتعاون المسلمين، ولا تجمع، ولا تمنع». [٢٣]

٤- وسطيتهم بين استحلاء الطاعات والقنوط عند ارتكاب الهفوات، وبهذه الوسطية يلجون مقام الرضا. قال محمد الواسطى: «استعمل الرضا ولا تجعل الرضا يستعملك». [٢٤] يعنى لا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع. وقريب من هذا المعنى قول ابن عطاء الله فى حكمه، حيث قال: «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل». قال شارحه ابن عجيبة الحسنى: «الاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله، وعلامة الاعتماد على الله أنه لا ينقص رجاؤه إذا وقع فى العصيان، ولا يزيد رجاؤه

إذا صدر منه إحسان، أو تقول لا يعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لا يزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظة، قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام، لأن خوفه ناشئ عن شهود الجلال، ورجاؤه ناشئ عن شهود الجمال، وجلال الحق وجماله لا يتغيران بزيادة ولا نقصان». [٢٥]

٥- وسطيتهم بين غلو الباطنية وإجحاف الظاهريين: إن الباطنية فئة ادعوا أن لظواهر القرءان والأخبار بواطن تجرى فى الظاهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال صوراً جلية، وهى عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق معينة، فجروا بذلك وراء صرف ظاهر اللغة إلى الباطن فقط، وبذلك أبطلوا الشرائع، لأنهم إذا نزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الإنسلاخ من قواعد الدين، إذا سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويعول عليه. [٢٦] فالباطنية قد سلكوا فى تأويل الظاهر مسلكاً واسعاً يخرج النص عن معناه، ومن ذلك قولهم – على سبيل المثال لا الحصر – الذى جرهم إلى مذهب تناسخ الأرواح، وذلك فى تفسيرهم لقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} (النساء ٥٦) حيث قالوا إن هذا التبديل للجلود للنفوس المنكوسة المغمورة فى عالم الطبيعة المعرضة عن رشدها من الأئمة المعصومين، فإنها تبقى أبد الدهر فى النار، على معنى أنها تبقى

فى العالم الجسمانى تتناسخها الأبدان، فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام فلا تفارق جسداً إلّا ويتلقاها آخر.

بينما أخذ الظاهرية بظاهر القول من الكتاب والسنة، ووقعوا بذلك فى حرج نفى الصفات التى سموها أسماء لله تعالى وليست صفات له عز وجل. كما وقعوا فى حرج إبطال الإجتهاد والتأويل للنصوص التى يصعب الأخذ بها على ظاهرها مثل أحاديث الإستواء على العرش. (٢٧)

أما الصوفية فقد وقفوا موقفاً عدلاً وسطاً لا إفراط فيه ولا تفريط. حيث لم ينجرفوا وراء الباطنية الذين حملوا الكل على الإشارة، ففاتهم معنى العبارة، وخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله- نسأل الله العافية بمنه وكرمه. كما تخطى الصوفية فكر قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة، وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية، فلا عبرة بهم. فالصوفية قد اشتركوا مع الفقهاء فى النظر إلى معنى العبارة، ثم نظروا لنفيس المعنى جمعاً بين الحقائق فتأولوا ما يؤول وعدلوا ما يعدل، فصاروا بذلك من أهل التحقيق الذين أثبتوا المعانى وحققوا المبانى وأخذوا الإشارة من ظاهر العبارة.

٦- وسطيتهم بين مطالب الجسد ومطالب الروح: قلنا إن الإنسان يتقلب بين مطالب الجسد ومطالب الروح. ومطالب الجسد قاهرة للمرء، فهى لا محالة متحققة فيه بحكم النزعات الشهوانية التى ركبت فى الإنسان. قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران ١٤). فهذه الشهوات تفرض على الإنسان السير فى اتجاه تحقيقها، وبعدم تحقيق بعضها يتلف الجسد كتلفه بعدم الأكل والشرب، فبقيام هذه المطالب قوام الحياة الدنيا.

أما مطالب الروح فجل أثرها فى الحياة الأخرى، ولهذا قلما نجد لها معيناً غريزياً فى داخل الإنسان يدفع إليها الجسد. قال تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (النساء ١٢٨). ومن اتجه للخير تلقائياً فبوازع الضمير الذى فطر عليه الإنسان، وهذا الضمير الحى كثيراً ما تنوشه نوازع الشر، وهنا يكمن جهاد النفس للخروج بها من قمقم المادية الجسدية إلى صفاء الروحانية.

وهنا يأتى دور التصوف الذى يتجه الصوفى فيه إلى جهاد النفس. فبدون التفعيل الحقيقى لرقائق الصوفية لن تتم تصفية الباطن. والصوفية فى هذا الجهاد يسلكون فى وسطية الإسلام. فليسوا هم بعيدين عن مطالب الجسد من مأكل ومشرب ومنكح وغيرها من حاجات النفس البشرية. فما الزهد عندهم برهبانية النصارى التى تدمر كل نوازع الجسد. فالقاعدة الذهبية عند الصوفية هى أن الزهد فى الحرام واجب والزهد فى الواجب حرام والزهد فى المباح مباح. ومن واجبات الشرع حفظ النفس، ولهذا أتى الأمر الإلهى بتلبية رغبات الجسد مع مراعات رغبات الروح فى هذه التلبية، قال تعالى:

{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}. (الأعراف ٣١)؛ ثم نبههم على زاد الروح، فقال تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} (البقرة ١٩٧)؛ كما دلهم على كساء الروح، فقال تعالى: {يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}. (الأعراف ٢٦)، يقول الصوفية إن اللباس الظاهر يقى آفات الدنيا، ولباس التقوى يصون عن الآفات التى توجب سخط المولى، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه. وللنفس لباس من التقوى وهو بذل الجهد، وللقلب لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطبع، وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق، وللسر لباس من التقوى وهو نفى المساكنات والتصاون من الملاحظات. [٢٨]

والصوفية فى كل أحوال عباداتهم ينتهجون الوسطية، ولا يسعنا المجال فى الاسترسال فى هذه الوسطية، فلنكتفى بما ذكرنا، ولنلتفت الآن إلى الوسطية الصوفية فى المعاملات.

مطلب ٢) وسطية الصوفية فى المعاملات:

إن تعامل الصوفية مع غيرهم من المسلمين وغير المسلمين يقوم على قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. (النحل ٩٠).

وقد اختار الصوفية التعامل بالإحسان مع الكل.

فتعاملهم مع المسئ يقوم على الرفق به وطلب الخير والهداية له. ويتوخون التيسير فى الهداية، حتى ليظن بعض النقاد أن الشيخ يتسامح مع مريده تسامحاً فيه إفراط فى اللين وتفريط فى الدين. غير أن هذا التساهل من قبل الشيخ إنما يفسر على ضوء التدرج فى تربية المريد وأخذ المريد بخفض الجناح حتى لا تنفر نفسه مما لا يطيق؛ قال تعالى : {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. (الشعراء ٢١٥). فكان الشيخ دفع الله الصائم ديمه (فى السودان) - رحمه الله وجعل الجنة متقلبه ومثواه - يقول: «لو عاملنا المريد بحقائق الطريق لما بقى معنا مريد»، وحكمة الشيخ دفع الله هذه مأخوذة من قول الله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}. (فاطر ٤٥). فالشيخ يؤخرهم لأجل هداية الله لهم. وقد روى فى الحديث النبوى الشريف: «روحوا القلوب ساعة فساعة ». [٢٩] وفى الأثر: « .... كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا". [٣٠] فمن عرف مراد الشيوخ فى تربيتهم مريديهم لعذرهم فى تغاضيهم عن هفوات التلاميذ؛ ومع ذلك فالأمر ليس مطلوقاً على أعنته، بل إذا ما انتهكت محارم الله تعالى فللشيخ غضبة لله يتحاشاها كل مريد له.

فشيوخ الصوفية قد استلهموا فى إرشادهم سماحة الدعوة الإسلامية ورفقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لا

يكون فى شئ إلا زانه ولا ينزع من شئ إلا شانه". [٣١] والصوفية فى ذلك الإرشاد السمح إنما يتبعون سنة التدرج المرحلى فى الإعلام الدعوى، هذه السنة التى كانت تيسيراً من الله تعالى كما رأيناها فى التدرج فى تحريم الخمر). [٣٢]

يقول الخليفة الشيخ أحمد بن الشيخ دفع الله الصائم ديمه: (أخذت مدرسة الصوفية خلاصة الآداب والتعاليم الحنيفة القيمة التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذ المريد ببساط الأنس والمحبة لا بالغلظة والتعنيف {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} (آل عمران ١٥٩).

وقاعدتهم فى ذلك قوله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل ١٢٥). وهم إذ يقدمون الترغيب على الترهيب والبشارة على النذارة إنما شاهدهم فى ذلك قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} (الأحزاب ٤٥). ولنتأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شئ». [٣٣] قال فى هذا الحديث العلامة الجردانى: (..... وأما الإحسان إلى سائر الناس فهو أن لا يغشهم، بل ينصح لهم ويحسن صحبتهم ويتحمل أذاهم، ويكرم مثواهم ويعلمهم ماينفعهم فى معاشهم ومعادهم، ويرشدهم إلى سبيل الخيرات واجتناب المنكرات، ويسأل الله لهم الهداية والتوفيق ويتصدق عن موتاهم ويدعو لهم بالمغفرة

والرحمة). [٣٤] قد كان هذا مسلك السادة الصوفية لكل عاصٍ سواءٌ بشرب الخمر أو غيرها من المحرمات). [٣٥]

فمن أمثلة الإرشاد بالرفق ما يحكى عن ذى النون المصرى (أنه كان مع أتباعه مرة فى قارب بالنيل، فاقترب منهم قارب آخر بالصاخبين، فاستاء أتباع ذى النون من سلوكهم، حتى أنهم سألوه أن يدعو الله أن يغرق القارب بمن فيه، ولكن ذا النون رفع يديه وقال: «اللهم أمنح هؤلاء الناس حياة طيبة فى الآخرة، كما منحتهم حياة طيبة فى الدنيا»، فاندهش أتباعه، وعند اقتراب القارب رأى من به ذا النون فبكوا وسألوه الصفح وكسروا أعوادهم وتابوا إلى الله، فقال ذو النون لأتباعه»الحياة الطيبة فى الدار الآخرة هى التوبة فى الدنيا، لقد رضيتم ورضوا دون أن يلحق بأحد أذى». لقد كان سلوكه هذا بسبب حبه البالغ للمسلمين؛ فهو بذلك يترسم خطى النبى صلى الله عليه وسلم، الذى لقى من سوء معاملة الكافرين ما لقى، ومع ذلك فلم يتوقف عن ترديد دعائه: «اللهم اهد قومى، فإنهم لا يعلمون». [٣٦]

فهذا التعامل الصوفى هو وسطية بين العنف والهجوم القاذع على المخطئ وبين التفريط والتهاون فى الإرشاد. وهذه الوسطية الصوفية هى من باب تواضع المتصوفة الذين يأخذون فى الحسبان النقص البشرى، فمن قصائد الشيخ دفع الله الصائم ديمه قوله: [٣٧]

لى نفسك شوف للناس ما تعوف

بمعنى أنظر إلى تقصيرك وعيوبك فى داخل نفسك، ولا تتصيد أخطاء وعيوب الآخرين. فالتواضع يورث التنازل وقبول النصيحة والرفق

فى إرشاد الآخرين، أما المتكبر فإذا وُعِظَ أنف، وإذا وَعَظَ عنف. فالصوفى نفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة وهناء.

هكذا جمع الصوفية أميز خصال الوسطية حيث انتهجوا نهج الحكمة والموعظة الحسنة فى الإرشاد والتربية الروحية، وتيسير الفتوى ورفع الحرج عن المسلمين، والاهتمام بجوهر الأشياء وبواطنها. وكل هذه الخصال قد أجمع على ضرورتها العلماء- الصوفى منهم وغير الصوفى.

ثم تميز الصوفية بالنهج العملى وتطبيق هذه الخصال على أرض الواقع، ومن أجل هذا السير العملى فقد أنشأوا الزوايا والرباطات والمسايد. فهم أرباب أحوال وأفعال، وليسوا أرباب أقوال وجدال. والمتأمل فى مذهبهم وسلوكهم يدرك أنهم كثيرو الأفعال، قليلو الأقوال؛ ولا شك أن الحال أقوى فى الإرشاد وتمكين الدين من مجرد المقال، ولهذا جاء فى الحديث الشريف: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة, كلهن فى النار إلّا واحدة», قالوا: وما تلك الفرقة ؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى». [٣٨]. فعبارة «ما أنا عليه وأصحابى» تنم عن استواء الحال مع المقال، كما تؤكد نهج الحال الذى عليه المقتدى به.

وبهذه الوسطية اكتسب الصوفى العدل والإنصاف فى الشهادة وحق له أن يكون ركيزةً كبرى فى الوسطية والشهادة وأن يدخل فى معنى قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. (البقرة ١٤٣).

المبحث الثالث: الشهادة فى التصوف

إن الشهادة على الغير تقتضى العدلية والوسطية. ولا تتوفر العدلية والوسطية إلّا فى من يكون هو فى ذات نفسه شاهداً على نفسه. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أو تُعْرِضُوا فإِنَّ الله كان بما تَعْمَلُونَ خَبِيراً}. (النساء ١٣٥). وهذا يفيد أن تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها هو الأساس الذى تبنى عليه كل الشهادات.

إن تخلية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل هو لب التصوف الذى يعنى الصفاء. فمن المعلوم أن التصوف هو مقام الإحسان الوارد فى الحديث الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ففى الإحسان تأخذ الشهادة منحى أكثر عمقاً وخصوصيةً. فالإحسان كما جاء فى الحديث الشريف أعلاه تكمن فيه معانى المشاهدة والمراقبة. ففى قوله صلى الله عليه وسلم: «كأنك تراه» يعنى أن تعمل العمل وأنت مشاهد لحضرة الله الحفيظ الشهيد على عملك وقلبك، حاضر حضور المشاهد لشهادة الله عليك. وفى: «فإنه يراك» أن تعمل العمل وأنت فى حضرة الرقيب عليك الذى لا يشاهده بصرك ولكن علمك وبصيرتك يعلمانك بأنه يشاهدك. ما زال العابد يحسن عبادته ويستغرق فيها، فإذا غلب عليه الحال توالت التجليات

على القلب، وصار فى حاله هذه كالمعاين، ويترقى من العلم البرهانى إلى العلم العيانى، فيظن أنها الرؤيا، ولكنها «كأنها» من شدة ظهور الحقيقة، ولهذا قال: «كأنك تراه»، ولم يقل: «لأنك تراه»- بـ «لام» التعليل و«أنّ» التوكيد. ومن كان هذا حاله فى عبادته وترقيها المستمر فإنه يكون كثير المحاسبة لنفسه والشهادة عليها بدوام تقصيرها. وهذا هو حال الصوفى الذى تلبس بمقام الإحسان.

إن مقام المشاهدة الإحسانية من آكد المقامات التى تثبت بها الحجة. فعند الفقهاء والأصوليين والمحدثين تثبت الحجة بالخبر، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم: « ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ» [٣٩] . وليس من خبر أوثق من خبر المشاهد، فيكون شاهد العيان حجة على الغائب الذى يأتيه الخبر، وفى الحديث: «الشاهد يرى ما لا يرى الغائب» [٤٠]. فبان بذلك أن الصوفى صاحب مشاهدات يحتج به على من غابت عنه المشاهد ولم يشهدها مشاهدة الصوفى إياها.

وأول مقامات المشاهدة هو شهود الربوبية، حيث تبدأ العبودية بشهادة التوحيد والإقرار برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، وذلك فى قول المسلم: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله». وللصوفية فى الشهود أقوال عديدة، منها قولهم: هو رؤية الحق بالحق، وقيل الشهود أن لا يرى العبد حظوظ نفسه، وشهود المجمل فى المفصل هو رؤية الأحدية فى الكثرة، ووحدة الشهود أن لا تشاهد إلّا الله فيما تطالعه من أشياء.

ولكن كيف تشهد على ما لم تتحقق منه، وكيف تتحقق مما لا

تعلم، وكيف تعلم ما لم تشاهد، وكيف تشاهد من خلف الستور الكثيفة، فإذاً أول عتبات المشاهدة إزالة الحجب المانعة من الرؤية. وذلك لأن الشهادة عند الصوفية نوع من المعرفة. ولا تتم المعرفة إلّا بتصفية النفس لأنها إناء العرفان. فبداية النفوس هى النفس الأمارة بالسوء، وهى قوة طبيعية مستتبعة للصفات المذمومة من شهوانية أو غضبية مسخرة فى اتجاه هذه الصفات المذمومة، التى يجب مغالبتها، كما قال الإمام البوصيرى: [٤١]

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَواها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيهُ
إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّىَ يُصْمِ أوْ يَصِمِ

وجهادها كسرها وإضعاف قوتها حتى تتغلب عليها النفس الكاملة التى تسخر القوة الشهوانية والغضبية فى فعل الخير.

قال النبى صلى الله عليه سلم: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٤٢].

وفى التصوف لا يتم العدل إلّا بتزكية النفس، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (الشمس ٩ ، ١٠) . وفى إخفاء مفاسدها ودس شرورها قتل لها، وبالتالى قتل للعدل؛ ومن قتل العدل فى داخله فهو قاتل لا ميراث له من عدول السلف الذين يناط بهم نفى التحريف، وكشف تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين.

فلتمام المشاهدة يسعى الصوفية لازالة الحجب بشتى أنواعها. فالحجب عندهم هى انطباع الصور الكونية فى القلب لأنها مانعة من قبول التجلى الإلهى، فحجاب النفس الشهوات، وحجاب القلب الملاحظة فى غير الحق، وحجاب العقل وقوفه مع المعانى المعقولة، وحجاب السر هو الوقوف مع الأسرار، وحجاب الروح المكاشفة. وهذه الحجب هى التى تجعل الرؤية كأنها «كأنك تراه» وليست رؤية على الحقيقة، لأنك تراه وراء حجب صفاته. (٤٣) أما مشاهدة الربوبية فهى مفتاح مشاهدة النفس – ما لها وما عليها، وفيها شهادة المرء على تقصيره. قرأ الصوفية قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس من يوم يأتى على العبد إلّا ينادى فيه: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فىّ خيراً أشهد لك به غداً، فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبداً، ويقول الليل مثل ذلك». (٤٤) وما جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} (الزلزلة ٤) ، قال:« أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل كذا وكذا فى يوم كذا وكذا، فهذا إخبارها، فهذا أمرها، فهذه أخبارها». (٤٥)

علم الصوفية كل ذلك فاجتهدوا على أداء الشهادة على أعمالهم وإصلاحها. وشهادة المرء على نفسه من أكبر الشهادات لأن المرء يشهد فيها على ما فى باطنه وما على ظاهره معاً. أما شهادة المرء على غيره فتقوم على رؤية الظاهر الذى ينم عن الباطن، ففى الحديث:

«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان». [٤٦] فالإيمان من عمل الجنان، ولكن تفصح عنه جوارح الإنسان – إيمان فى القلب تدل عليه الأرجل بسعيها للمساجد.

شهادة الفراسة:

فالصوفى شهيد على نفسه بحكم محاسبته لها وجهادها. وشهيد على غيره بحكم شهادة المسلمين على غيرهم من الأمم. ولكن له مزية أخرى تكسبه مزيد شهادة على غيره، وهذه المزية هى ما يتحلى به الصوفى من فراسة تعلمه ما بداخل المشاهد والمواقف. قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (التوبة ١٠٥). قال القشيرى: «خوفهم برؤيته – سبحانه – لأعمالهم، فلما علم أن فيهم من تتقاصر حالته عن الاحتشام لاطلاع الحق قال: {ورسوله}، ثم قال لمن نزلت رتبته: {والمؤمنون}". [٤٧] قال ابن كثير: (قال مجاهد: هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة. وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»). [٤٨]

وقال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} (الحجر ٧٥). (قال مجاهد فى قوله {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} للمتفرسين). [٤٩] وعن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}[٥٠] قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». [٥١] .

قال القشيرى: الفراسة خاطر يهجم على القلب فينفى ما يضاده. وقال محمد الواسطى: الفراسة سواطع أنوار لمعت فى القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر فى الغيوب، من غيب إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها، فيتكلم على ضمير الخلق. [٥٢] وقيل (أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف عليه غلام نصرانى متنكراً، وقال: أيها الشيخ: ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ؟ فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه، وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام). [٥٣] وهذا يعنى أن الجنيد بفراسته قد علم تنكر الشاب النصرانى.

قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولاغفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبده. قوله نظر بنور الحق يعنى بنور خصّه به الحق سبحانه[٥٤]

وهذه الفراسة تأتى من قوة سلطان الروح. فسبب كشف الفراسة أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن، ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد ويكشف حجاب

الحس فيرى ما يراه شهوداً.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهرى» [٥٥] .

فالفراسة أمر باطنى، ولكن فى حق المؤمن له ما يسنده فى ظاهر الشرع، وذلك حتى لا يدعيه من لا شاهد له، قال تعالى: {ولو نَشَاءُ لأرَيْنَاكَهُم فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ولَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القَوْلِ} (محمد ٣٠) . فلحن القول هو الشاهد الشرعى على الفراسة.

ويلحق بمشاهدة الفراسة مشاهدة العلم اللدنى. ومن العلم اللدنى ما لا تتيحه الأسباب الظاهرة والأعمال المشاهدة. ويبرز سؤال فى هذا المجال: هل الأعمال التى تشاهد أعراض أم جواهر ؟ لم يفصل الإسلام بين الروح والجسد – العمل المادى ورائحته المعنوية: سئل ابن تيمية عن قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا هم العبد بالحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة» إذا كان هم العبد سراً بينه وبين ربه فكيف تتطلع عليه الملائكة ؟ فقال: روى عن سفيان الثورى فى جواب هذه المسألة أنه قال: «إذا هم بحسنة شم الملك رائحة طيبة، وإذا هم بسيئة شم الملك رائحة خبيثة». عن جندب بن سفيان البجلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أسرّ عبد سريرة إلّا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر». [٥٦] فالفراسة علم لدى الذين يعرفون أردية السرائر.

إن وسطية التصوف قد أتته من خصوصية نظر الصوفى واتساع أفق هذا النظر، ذلكم الإتساع الذى يتيح للصوفى شمول النظرة

وإحاطتها بوقوف الناظر على جميع أطراف الموضوع محل الشهادة. قال الشيخ أحمد زروق: «نظر الصوفى فى المعاملات أخص من نظر الفقيه إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفى ينظر ما يحصل به الكمال؛ وأخص أيضاً من نظر الأصولى لأن الأصولى يعتبر ما يصح به المعتقد والصوفى ينظر فيما يتقوى به اليقين؛ وأخص أيضاً من نظر المفسر وصاحب الفقه لأن كلاً منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلّا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد اثبات ما أثبتوه». [٥٧] يعنى بعد إثبات معنى ظاهر العبارة.

وانسياقاً مع تحليل الشيخ أحمد زروق المغربى نقول: إنه فى مجال الشهادة نجد أن ما يسقط به حرج الفقيه هو إقامة الحد على الجانى، وما يحصل به كمال الصوفى هو درء الحد بالشبهة الذى يكمل به الحكم من كل وجوهه، ولو أكمل فيه للجانى العفو. فالصوفى متسامح، غير متسرع فى حكمه على غيره، وهو يعمل بالأثر الذى يقول: «لأن يخطئ الإمام فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة». أما شهادة المفسر والفقيه فهى على ما يبدو من ظاهر لفظ اللافظ، بينما شهادة الصوفى فهى على مايشير إليه لفظ اللافظ إن كان المعنى مما لا تسعفه العبارة الجلية، وذلك لأن الصوفى صاحب إشارة - بجانب تحقيقه للعبارة.

وفى التصوف نجد شهادة الإسناد. فالشهادة تكمن فى سلسلة رجال الطريق الصوفى، هذا يشهد لذاك التلميذ الذى يشهد لتلميذه، وهكذا تمتد سلسلة الشهادات الموثقة كابراً عن كابر. وفى هذه الشهادة نوع

من الإسناد. ولا يوجد هذا الإسناد فى يومنا هذا إلّا عند رجال الطرق الصوفية، حيث تظهر على وثيقة الإجازة سلسلة شيوخ المريد المجاز. ولا نجد فى الشهادات الجامعية تصريح بأسماء معلمى الطالب الذى مُنِحَ الشهادة.

المبحث الرابع: وسطية: لا رهبة ولا ارهابية

مطلب ١) تعريف الإرهاب البدنى عالمياً:

كثر الحديث عالمياً فى الآونة الأخيرة عن (الإرهاب terrorism) والإرهابيين. واتخذ الغرب إجراءات شتى لتفادى ما يلحق بهم جراء أفعال عنف يقوم بها من يسميهم الغرب الإرهابيين.

لم يتفق العالم على تعريف جامع مانع للإرهاب. فقد جاء فى بعض التعريفات أن الإرهاب هو عمل يقصد به إلحاق الأذى الجسدى الجسيم بالمواطنين غير المحاربين. ومن أشهر تعاريف الإرهاب أنه الاستخدام المنظم للعنف غير القانونى. ولكن ما هو قانونى وغير قانونى أمر فيه خلاف بين الآراء. ومهما وجد للإرهاب من تبريرات فلسفية، إيديولوجية، سياسية، دينية، أو عرقية يظل المنحى فى تعريف الإرهاب منحىً شخصيا وذاتياً غير موضوعى. فأى طرف من أطراف النزاع يصف الآخر بأنه إرهابى؛ كما أن حركات التحرر الوطنى ضد المستعمر يصفها الوطنى المجاهد طالب الحرية بأنها جهاد ونضال، بينما يصفها المستعمر بأنها إرهاب. ومصدر التعريف الواحد فى الدولة الواحدة قد يغير وجهة نظره حسب مصالحه؛ فعندما كان الأفغان يقاتلون السوفييت طلباً لحرية بلادهم افغانستان كانت أمريكا تصفهم بمقاتلى الحرية؛ ولكن بعد تحررهم ناهض الأفغان أمريكا واعتبروها مستعمراً جديداً يتدخل فى الشأن الأفغانى، فوصفهم الأمريكان بالإرهابيين. وهكذا يظل مصطلح الإرهاب يدور

مع المصالح القومية لكل دولة.

مطلب ٢) تعريف الإرهاب إسلامياً وموقف الإسلام منه:

ونحن هنا يهمنا التفسير الإسلامى لكلمة إرهاب. ونفرق بين قسمين من أعمال العنف:

أولاً: الاعتداء على الغير:

إن الاعتداء والسطو على الآمنين من المواطنين والدول، والتسلط على الأفراد والشعوب من قبل الحكام الظلمة أو الدول الظالمة يعتبر إرهاباً. وهو فعل مذموم، يحرم فعله وممارسته، وهو من كبائر الذنوب التى يعاقب مرتكبها. فمثل هذا العمل العنيف يعتبر جريمة إرهابية.

ثانياً: الدفاع عن النفس:

إن الدفاع عن الوطن والشرف والعرض والمال والنفس أمر مشروع وإن تطلَّبَ المقاومة العنيفة، ومثل هذا لا يعتبر إرهاباً، فهو من نوع من حركات التحرر التى يعترف بها المجتمع المنصف. فمثل هذا العمل العنيف يعد جهاداً وواجباً مقدساً.

لقد اقتضت حكمة الله بلاء الإنسان وإنزاله إلى الأرض من الجنة لزوم الإمتحان، ولايتم هذا البلاء إلّا باستعداء بعضنا لبعض، قال تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلىٰ حِينٍ} (البقرة ٣٦). ومن ذلك عدو الإنس وعدو الجن، الذين

هم جنود القتال لصد المسلمين عن دينهم، قال تعالى: {ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ومَنْ يَرتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وهُوَ كافِرٌ فأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ فى الدُّنْيَا والآخِرَةِ وأُولَئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة ٢١٧).

وقتال الكفار المسلمين هو الذى أوجب الجهاد على المسلمين. فلم تكن غزوات النبى صلى الله عليه سلم وسراياه تعدياً على المشركين، ولكنها كانت دفاعاً عن النفس والمال وحرية الدين والمعتقد. ولم يبدأ هذا الجهاد إلّا بعد الإذن والتفويض الإلهى، درءاً للظلم ورداً للمظالم، قال عز وجل: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} (الحج ٣٩، ٤٠). إذاً شرع الله تعالى القتال لتخويف المشركين المعتدين على المسلمين، ولردع هؤلاء الكفار، وليس تعدياً عليهم، فالإسلام يحرِّم التعدى على الغير، قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ} (البقرة ١٩٠).

إذاً لا يوجد فى الإسلام إرهاب وتسلط على الآخرين، ولا يوجد حجر على الفكر، بل ثمة حرية تفكير وحرية اعتقاد لكافة بنى البشر، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَها واللهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة ٢٥٦).

وفى ذات الوقت لا يكون المسلم هياباً من العدو، فلا إرهاب للعدو ولا رهبة منه. فإذا استدعى الأمر الدفاع عن المقدسات وعن النفس والمال فالمسلم مقدام يبيع نفسه للشهادة فى سبيل الله، ولكنه لا يعتدى على أحد قط. وهو فى هذا ينتهج خط الوسطية التى لا تفريط فيها فى الحقوق ولا إفراط فى الثأر والعقوبة.

مطلب ٣) الإرهاب الفكرى:

إن ثمة إرهاباً يمارسه الغرب ولا يعرفه الإسلام، وهو القرصنة الفكرية التى تتم داخل الشبكة العنكبوتية العالمية (الانترنت internet) والتى يقوم بها (القراصنة hackers)، الذين يقومون بإتلاف بعض الأفكار فى بعض المواقع على الانترنت، فهم يقومون بتشويش الأفكار التى توجد داخل تلك المواقع بإتلافها أو تحريفها بالحذف أو الإضافة التى تحرِّف فكر الموقع. وهذا هو عين الإرهاب الفكرى. وهو يشبه الحظر أو (السنسرة censorship)، وهى المراقبة الفكرية التى تمارسها بعض الحكومات على الصحافة والنشر، ذلك بغرض منع الأفكار والأخبار التى لا ترضى عنها هذه الحكومات.

ومن المؤسف أنه قد ظهر فى الآونة الأخيرة فى العالم الإسلامى بعض الجماعات المتطرفة - لا الوسطية - التى تمارس هذا الإرهاب الفكرى على الانترنت. فنجد هذه الجماعات تهجم على مواقع بعض الجماعات الأخرى، وتحذف ما لا يتفق معها فى الفكر، كما تضيف

زوراً فى هذه المواقع المعتدى عليها ما يحرف فكر هذه المواقع.

إنه إذا كان فى الإرهاب البدنى قتل النفس، ففى الإرهاب الفكرى قتل الفكر والرأى وهذا من أشد أنواع القتل والفتن، وفيه قال تعالى: {والفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ} (البقرة ١٩١). لأن من يبغى الفتنة ينزع إلى تعذيب المسلم وأذاه فى محاولة لرده إلى الكفر، والكفر أشد ضرراً من القتل البدنى، فمن مات دون دينه مات شهيداً، ومن ارتد عن دينه مات كافراً والعياذ بالله.

مطلب ٤) لا إرهاب فى التصوف:

إن أقدر من ينجز وسطية عدم الإعتداء وعدم التفريط فى الحقوق هم الصوفية، فهم قوم جبلوا على السماحة وعدم الاعتداء، بل هم يأخذون العدو بالتلطف الذى طلب من سيدنا موسى تجاه فرعون، قال تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَّعَلَّهُ يَتذَكَّرُ أو يَخشَى} (طه ٤٤). وقد أثر عن الصوفية أخذ الجانى بالتيسير ولين الجانب، وكم تاب على أيديهم الكثيرون من العصاة بسبب هذا الإحسان فى الدعوة إلى الله تعالى.

أما إذا دعا داعى الجهاد فالصوفية هم فى طليعة الصفوف القتالية. ونظرة سريعة إلى التاريخ الإسلامى والعربى ندرك منها الكثير من مجاهدات الصوفية ضد الاستعمار والظلم، فعلى سبيل الأمثلة التى تعطى مؤشراً جهادياً فى الدوائر الصوفية نذكر بعض المجاهدين، ومنهم:

١- إبراهيم بن أدهم: (توفى عام ١٦١هـ / ٧٧٨م) وقد استشهد فى إحدى جزر بحر الروم.

٢- عبد الله بن المبارك: (١١٨هـ / ٧٣٦م - ١٨١هـ / ٧٩٧م).

٣- صلاح الدين الأيوبى «يوسف بن أيوب بن شاذى»: (٥٣٢هـ / ١١٣٧م - ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) الذى هزم الصليبيين وحرر بيت المقدس.

٤- سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى: (توفى عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) وهو قد هزم التتار.

٥- أحمد الشريف السنوسى: (١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م - ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م) الذى قاد الجهاد فى ليبيا.

٦- محمد أحمد المهدى: (١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م - ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م) الذى دحر المستعمر من بلاد السودان.

٧- عبد القادر بن محى الدين الجزائرى (١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م - ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م) الذى قاد الجهاد فى الجزائر ضد الفرنسيين.

٨- عمر بن مختار بن عمر: (١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م - ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) الذى قاوم المستعمر الإيطالى فى ليبيا.

وغيرهم كثير من المجاهدين الصوفية ممن لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً.

فالصوفية إن أحسنوا فى الدعوة إلى الله ورفقوا بالمريدين مستعملين جزرة الإحسان التى تستعبد القلوب فهم يفعلون ذلك لوجه الله تعالى ولا يريدون عوضا على إحسانهم إلّا وجه الله تعالى وفضله وإحسانه عز وجل.

وإن استخدم الصوفية عصا الجهاد فهم يجاهدون فى سبيل الله وحده، يجاهدون لإعلاء كلمة الله، ولكى يعود للدين مجده، لا لمنصب سياسى، ولا لجاه دنيوي، ولا لمال أو سلطان، وقد عرف عنهم التجرد لله بعيداً عن منازع الدنيا وشهواتها.

وحرى بمن يجاهد لله أن يتحرى الإنصاف والعدل والوسطية فى تعامله مع العدو. ولن يجد معه عدوه إلّا معاملة إنسانية ومنصفة لن ترقى إليها كل أعراف حقوق الإنسان التى يدعيها الغرب فى مواثيقه التى هى حبر على الورق وليست واقعاً ملموساً فى العلاقات الحربية.

أما فيما يتعلق بالإرهاب الفكرى فالصوفية بعيدون كل البعد عن مثل هذه الممارسات التى لا يرضاها الإسلام، فالإسلام قد منع قول الزور واعتبره من الكبائر، عن أنس، عن النبى صلى الله عليه وسلم (فى الكبائر) قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وقول الزور». [٥٨]

فالصوفية قد أقاموا دعوتهم على الإحسان والرفق، ومن نهج هذا المنهج الإحسانى فى دعوته لا محالة يتسع صدره لقول معارضيه، فلا يبخس أفكار غيره من الجماعات. فلا نجد هذا الإرهاب الفكرى عند الصوفية، وهم بذلك يشكلون قمة العدل والوسطية التى لا تخنق الأفكار ولا تصادرها.

إن الإرهاب إنما يبيِضُ ويفرخ فى جو الغلو والتطرف، وليس فى جو الوسطية والاعتدال.

والآن قد تبين لنا أن الوسطية هى من أهم ركائز التصوف؛ وأن التصوف بما فيه من مقدرة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، يشكل صمام الأمان فى الأمة المسلمة من الغلو والتطرف الذى أشان سمعة الإسلام وزرع داخل المجتمع الغربى ما يسمى بـ (الإسلاموفوبيا Islamophobia)، أى الرهاب والخوف من الإسلام ومن المسلمين، وذلك لأن الغرب لم يعرف الوجه الحسن من الإسلام، والإسلام كله وجه حسن، وما يفعله بعض المتطرفين المسلمين إنما هو نشاز لا يعبر عن سماحة الإسلام وعدله ووسطيته.

الفصل الثالث: منغصات الوسطية والشهادة

إنه من نعم الله تعالى على المسلمين أن جعلهم أمة وسطاً، تعدل فى أحكامها ولا تجور، وبهذه الوسطية قبلت شهادتهم على غيرهم من الأمم. ولكن بتقادم الزمن على المسلمين وضعف إيمان بعضهم فشت فيهم بعض أمراض الأمم السابقة، وأخطرها مرض الغلو والإعجاب بالرأى.

لقد ظهر فى زمننا هذا قوم انتحلوا خصالاً يخشى عليهم منها أن تجرهم إلى الهلاك، وتخرجهم من الدين كما يخرج السهم من الرمية، وتتلخص هذه المهلكات فى الآتى:

١- الفهم المغلوط لحقائق الدين:

لقد تناول هؤلاء الغلاة آيات وأحاديث تأوَّلوها على هواهم، وعمدوا إلى أحاديث وآيات نزلت فى اليهود والنصارى فأسقطوها على المسلمين حسبما أملت عليهم تأويلاتهم الفاسدة والجائرة. فإنهم قد أطلقوا بموجب هذه التأويلات الفاسدة أفكاراً خرجوا بها عن روح الدين وإجماع الأمة. ونحن فى هذه العجالة نورد مجرد أمثلة لبيان تأويلاتهم هذه، ولا يمكننا حصر مقالاتهم، فليرجع إليها فى مظانها. فمثلاً تناولوا الحديث الشريف: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله». [٥٩] وقالوا بكفر كل من مدح النبى صلى الله عليه وسلم. قال السيد محمد بن علوى المالكى: «إن الفرق بين مقام الخالق ومقام المخلوق هو الحد الفاصل

بين الكفر والإيمان، ونعتقد أن من خلط بين المقامين فقد كفر- والعياذ بالله. فليس فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شئ من الكفر والإشراك، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات. وهكذا كل من عظم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين، وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين. قال عز وجل: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}. (الحج ٣٠) ، وقال تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}. (الحج ٣٢)». [٦٠]

وعمد هؤلاء الشواذ إلى تأويل الآية القرءانية تأويلاً باطلاً، مثل تأويلهم لقوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. (الأعراف ٣٢)، فنادوا بتحليل الذهب والحرير للرجال باعتبارهما من زينة الله والطيبات التى أخرجها الله لعباده. وفات على هؤلاء معرفة علوم القرءان والسنة: الناسخ والمنسوخ، العام والخاص، العام المراد به الخصوص، والمطلق والمقيد من النصوص، وغيرها من أحكام القرءان والسنة؛ فإن أى قول يصدر عن المسلم من غير إحاطة ومعرفة بتلك الوسائل إنما هو قول فى الدين بالتشهى والخرص والتخمين، وركب مركباً مهلكاً؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم: «من قال فى القرءان بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». [٦١] وفى رواية: «من قال فى كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ». [٦٢]

وهذا الفهم المغلوط لحقائق الدين بدوره قد أوقعهم فى الغلو والشطط ، الذى تمثل فى اتهام المسلمين وتكفيرهم. بالحكم عليهم ظناً – لا يقيناً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». (٦٣)

٢- قصور المدارك:

قام هؤلاء الغلاة بتفسير نصوص جاءت من بعض العلماء الأجلاء من أهل الذوق والعرفان، فكانت تفاسيرهم تنم عن قصور مداركهم وأفهامهم لكلام هؤلاء القوم. فكان مثلهم كمن قيل فيه: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}. (يونس ٣٩). وبعض الناس أعداء لما يجهلون. فإن قيل: «لكل مقام مقال»، فنقول: «لكل مقال مقام». فالمقال الذى يصدر عن صاحب المقام العالى لا يفهمه إلاّ من بلغ هذا المقام – وكل له مقام معلوم. فمن وقف عند معانٍ ظاهرة لنصوص ظاهرة فهذا مقامه، ومن تعدى ظاهر المقال إلى خفى الإشارة فقد ارتفع مقامه؛ (فعن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، قال ابن عباس: فما رأيت أنه دعانى يومئذٍ إلّا ليريهم، قال: ما تقولون فى قول الله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ}. فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لى: أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت: لا. قال: فما تقول ؟ قلت:

هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: "إذا جاء نصر الله والفتح"، وذلك علامة أجلك؛ "فسبح بحمد الله واستغفره إنه كان تواباً". فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تقول. (٦٤) فهذا من رقائق ابن عباس التى دق فهمها على غيره، وهو تفسير إشارى لم يجد من يعترض عليه من الصحابة رضوان الله عليهم، بل أيده فيه سيدنا عمر رضى الله عنه.

٣- تكفير المسلمين:

بناء على فهمهم المشوش للدين فقد جازفوا باتهام المسلمين فى دينهم ورموهم بالكفر، لا لشئ إلّا لأن المسلمين خالفوهم فى فروع الفقه والدين، فاشتطوا وجعلوا مخالفيهم فى هذه الفروع كفاراً يجب محاربتهم، لأنهم عمدوا إلى هذه الفروع فجعلوها من أساسيات الدين الإسلامى، ومما علم من الدين بالضرورة، ولم يعترفوا بأنها نشأت من فاسد تأويلاتهم، بل لم يزعنوا – على أقل تقدير – بأنها محل خلاف فقهى واجتهاد لكل مجتهد فيها أجر وإن أخطأ. فتكفير المسلم عواقبه وخيمة، ففى الحديث: «إيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما». (٦٥)

عن السيدة عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تكفروا أحداً من أهل قبلتكم، وإن عملوا بالكبائر، وصلوا مع كل إمام، وجاهدوا مع كل أمير». (٦٦)

أخرج أبو القاسم الاصفهانى فى «الترغيب والترهيب»عن ابن

عمر قال: وضَعَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثمانى عشرة كلمة، قال: «ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً». (٦٧)

ومن المعلوم شرعاً كما نص عليه الأئمة أن من أدخل ألف ملحد فى الإسلام بلفظ يحتمل الإسلام من وجه واحد ويحتمل الكفر من وجوه أقرب إلى الله تعالى ممن أخرج مسلماً واحداً من الإسلام بلفظ يحتمل الكفر من وجوه ويحتمل الإسلام من وجه واحد. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أدرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فأخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة». (٦٨)

ولكن مما يؤسف له أن تنبرى هذه الفئة التكفيرية وتوزع صكوك الكفر على كل الأمة زاعمة أن كل أسلافنا من أهل القرءان والسنة والحديث والفقه والسيرة والتصوف كانوا غارقين فى توحيد تراه هذه الفئة على ضلال طيلة القرون الماضية. وفى الحديث النبوى الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: «لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة. واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار» قيل: يا رسول الله ! من هم ؟ قال: «الجماعة». (٦٩) . وبالطبع لن يكون سلفياً كل من زعم هذا التكفير فى أسلافنا، وإلّا لاشترك مع الأسلاف فى توحيد يرفضه.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة. فإذا رأيتم اختلافاً، فعليكم بالسواد الأعظم» (٧٠)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس، فهو أهلكهم». [٧١]

٤- الاستبدادى بالرأى والحدة فى الخطاب الدعوى:

وليتهم أزعنوا للمجادلة بالحسنى ومقارعة الرأى بالرأى. بل اتخذوا اسلوب الحدة والتهجم على أعراض الناس – أمواتاً كان هؤلاء الناس أم أحياءً. وطفقوا يسبون المسلمين، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن سباب المسلم لأخيه وقتاله له، فقال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». [٧٢] وهم بهذا السباب وهذه الحدة قد خرجوا عن أدب الخلاف فى الإسلام. وهذه الحدة تحول الخلاف إلى عناد شخصى وعداء ماحق وتكبر يدخل فى تحذير الحديث النبوى الشريف: «حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك – يعنى نفسك». [٧٣]

إن الاستبداد بالرأى يؤدى إلى قولبة الناس، أى صبهم فى قالب فكري واحد، وهذا نوع من التنطع والشطط بالرأى الذى يجعل جهة معينة تفرض رؤيتها. إن استنساخ المجتمع من قناعة واحدة - هى محل خلاف بين البشر بحكم تنوع الثقافات والمنازع الاجتماعية والظروف البيئية - هو مما نعيبه على العولمة التى تود أدلجة كل الناس فى ثقافة واحدة. فالتنوع - ومنه تنوع الرؤى والأفكار - هو سنة كونية جعلها الله تعالى مدعاة للتعارف والتآلف، ولم يفرض على البشر الذوبان فى مجتمع واحد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات ١٣)، وقال عز وجل: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (هود ١١٨). ومثلما لم يختلف البشر- بغض النظر عن عقائدهم- على أساسيات الفكر البشرى من عدالة ومساواة وكريم أخلاق يرتضيها العقل البشرى، فكذلك لم يختلف المسلمون فى ما علم من الدين بالضرورة وفى ثوابت الإسلام مثل عقيدة التوحيد والعبادات والحدود وغيرها مما يعلمه أدنى مسلم.

غير أن اختلاف الناس يقع فى فرعيات سببها تنوع الثقافات والبيئات والعادات البشرية المتباينة. وبقدر ما يحافظ المسلمون على هذا التنوع بقدر ما تزدهر الثقافة عندهم وتستفيد البشرية المسلمة من مرونة التشريع الإسلامى، ويندلع المد الإسلامى فى كل زمان ومكان دون عائق من التطرف والإقصائية.

٥- تحريف أفكار الغير:

ومن أدواء التكفيريين أنهم يعمدون إلى كتب العلماء الذين يخالفونهم فى الرأى، فيعيدون طباعة هذه الكتب محرفين أفكار مؤلفيها، وفعلهم هذا هو خيانة علمية. كما أنهم ينشئون مواقع إلكترونية تحت مسمى مخالفيهم فى الرأى (كالصوفية مثلاً) ليستقطبوا محبى التصوف ويبثون عليهم نقدهم للتصوف، وهذا الفعل كمن يلج بيت شخص ويسبه من داخل هذا البيت؛ علماً بأن أى مذهب يؤخذ من أربابه.

وبعـد

لقد وَحَّدَ الإسلام العرب وجمع حولهم بقية الشعوب والأمم التى اعتنقت الإسلام واهتمت باللغة العربية والثقافة العربية التى بهما يتم فهم الدين الإسلامى، فصارت أمة الإسلام بمختلف شعوبها وقبائلها أمة واحدة، تعبد رباً واحداً، قال تعالى:{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}. (الأنبياء ٩٢) ونهانا المولى عز وجل عن التفرق والتشرذم، فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللَّه وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ}. (الأنفال ٤٦) ولن يتم لنا هذا التوحد إلّا بانتهاج الوسطية فى تعاملنا مع بعضنا كمسلمين ومع غيرنا من غير المسلمين. ومن أهم بواعث الوسطية فينا ما يلى:

١ـ طاعة الله ورسوله:

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُواْ اللَّه وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}. (آل عمران ٣٢) تلك الطاعة التى يخشى على الخارج عنها من الكفر والشرك. فطاعة الله ورسوله فى ترك المحظور وفعل الواجب واجبة، وفى فعل المباح والمندوب مندوبة. إن الطاعة فى الفرائض والسنن المؤكدة حتمية. أما النوافل والعادات فالأمر فيها على الندب والترخيص، وكل ذلك بالاستطاعة. ومن هنا جاء الحديث النبوى الشريف: «فإذا أمرتكم بالشئ فخذوا به ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه». (٧٤) قال الإمام السندى فى شرحه للحديث أعلاه: («فإذا أمرتكم .. الخ» يريد أن الأمر المطلق لا يقتضى دوام

الفعل وإنما يقتضى جنس المأمور به وأنه طاعة مطلوبة ينبغى أن يأتى كل إنسان منه على قدر طاقته، وأما النهى فيقتضى دوام الترك، والله أعلم). فمن أجل رفع الحرج عن المسلمين أتى الأمر بالرخصة حتى فى العبادات المفروضة.

٢- الاحتكام إلى الكتاب والسنة والجماعة:

وهذا الاحتكام ضرورى لحل مواضع الخلاف، ذلكم الاحتكام الذى به تمام الإيمان، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}. (النساء ٦٥) . ويستتبع هذا الإحتكام الرجوع إلى أولى الأمر من العلماء والفقهاء الذين هم أقدر مَنْ يفهم الكتاب والسنة ويستنبط منهما الأحكام، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّه وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللِّه وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللِّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}. (النساء ٥٩) وقال عز وجل: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللِّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطان}. (النساء ٨٣) إن طاعة أولى الأمر من العلماء تضمن إجماع الأمة والتفافها على رأى العلماء واجتهادهم والسير فى ركب الجماعة.

وهنا تظهر لنا خصيصة التصوف؛ فالتصوف قد بنى على طاعة التلميذ واتباعه شيخه، فطاعة الشيخ المرشد فيما يرضى الله ورسوله

هى من أركان التصوف، وهى من آكد أسباب الاجتماع والتوحد.

٣- تهذيب الخطاب الدعوى:

فتهذيب هذا الخطاب يعنى تنقيته من الحدة والفظاظة والغلظة، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}. (آل عمران ١٥٩) وما أحوج الأمة المسلمة فى هذه الإيام إلى التحلى برقائق التصوف من رفق وتؤدة وورع وإيثار وفتوة وما إلى ذلك من صفات الصوفية الداعين إلى الله بالحسنى، المحببين الخلق فى ربهم، الميسرين فى الدعوة إليه. فعن أبى موسى رضى الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره، قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». (٧٥)

٤- المجادلة بالحسنى:

قال تعالى: {وجَادِلْهُمْ بالَّتى هِىَ أَحْسَنُ} (النحل ١٢٥) . وفى المجادلة بالحسنى ينتفى التعصب، وتتساوى فرص مداولات القضية. قال تعالى: {وإنّا وإيَّاكمْ لَعَلَى هُدىً أو فِى ضَلالٍ مُبِينٍ} (سبأ ٢٤). قال أبو حيان: «أخرج الكلام مخرج الشك، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، وفى هذا انصاف وتلطف فى الدعوى» (٧٦) كما يستشف من الآية الكريمة

مجادلة الخصم بالتجرد وعدم الحكم المسبق، وإن علم فى باطنه أنه على حق. وفى المجادلة بالحسنى تتم مقارعة الحجة بالحجة، بعيداً من الإفلاس الفكرى الذى يفضى إلى الإرهاب البدنى.

٥- توعية الشباب:

إن الشباب بما يتحلون به من حماس وعاطفة جياشة يشكلون أهم دعائم المجتمع المسلم. ولهذا لا ينبغى أن نترك هؤلاء الشباب فريسة لأفكار التكفير والتفسيق التى تدين بها الطوائف المارقة عن الجماعة. وهنا يكمن أهمية تنقية مناهج الدراسة من شوائب الفكر التكفيرى، ووضع مناهج الدراسة وخطاب الشباب حسبما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة النبى صلى الله عليه وسلم مما فهمه العلماء وأجمعوا عليه.

إن اختلاف الآراء والمنازع سنة كونية كتبها الله تعالى على البشر، ويتجلى هذا الاختلاف فى كونهم شعوباً وقبائل متباينة، وفى اختلاف ألوان البشر وألسنة الشعوب، وفى عاداتهم وتقاليدهم التى بموجبها تتشكل ثقافة كل شعب على حده. ومن هذه الاختلافات نشأ الاختلاف المتسامح فى الفتوى والمذاهب الفقهية، وذلك لأن الفقه مستمد من دين الله الذى يراعى مصالح العباد ورفع الحرج عنهم ومراعاة ظروفهم المعيشية والفوارق فى مقدراتهم. ويعتبر اختلاف الفقهاء فى فروع الدين رحمة وتوسعة للأمة. أما ما نشهده اليوم من

اختلافات يزعم صانعوها أنها جوهرية فهى التى يقع بها الحرج.

فالمخرج من حرج هذه الإختلافات هى أن يقبل كل المسلمين ما اتفقوا فيه وأن يتسامحوا فيما اختلفوا فيه مما لا يخرج عن روح الدين الإسلامى، وبهذا التسامح وحده تجتمع الأمة المسلمة على الوسطية، وبهذا التسامح نتفادى الإرهاب الفكرى الذى يمارسه التكفيريون الذين لم يكتفوا بمهاجمة الأحياء والكيل لهم بالتجريح والتكفير، بل تعدوا على حرمات الأموت، متجاهلين قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه». (٧٧)

والمخرج من حرج هذه الاختلافات هو فى تبنى المنهج الصوفى الذى اتسع صدره ليحوى المذاهب الفقهية فى الأقطار الإسلامية المختلفة، ثم زد على ذلك اجتماع الناس تحت لواء طريقة صوفية واحدة تضمهم بشتى مستوياتهم الاجتماعية، المالية، الثقافية، وتباين الاختلافات الموجودة فى أجناسهم وشعوبهم وقبائلهم؛ فنجد الطريقة الصوفية الواحدة تضم كل قبائل البلد الواحد، ثم هى تنتشر فى البلدان الأخرى. كما نجد اجتماع كل هذه الطرق فى نهج صوفى متوحد الرؤى والمنازع الروحية، ولا تباين بين هذه الطرق الصوفية إلّا كما تتباين المذاهب الفقهية. فالكل يستقى من معين النبوة الصافى. وكما لم يقدح اختلاف المذاهب الفقهية فى صحتها – وذلك للأسباب التى ذكرت آنفاً عن هذه الاختلافات – فكذلك تنوع الطرق الصوفية لا سبب له سوى الاختلافات فى المقدرات الروحية والاستعدادات النفسية لكل سالك، حيث ينتهج الطريقة التى تتحقق فيها ذاته وامكانياته فى تنوع

العبادات؛ ونحن نشاهد ذلك التنوع حتى بين عامة المسلمين، حيث يسير هذا لله تعالى بالصيام وذاك بالقيام، وآخر بالصدقة والزكاة، وغيره بحسن الخلق، وغيره بالجهاد والمرابطة، إلى آخر أعمال البر التى لا تنقضى.

إن وسطية الفقه الإسلامى تتمثل فى أنه يجمع بين الثبات والمرونة معاً فى تناسق محكم. فالأصول الكلية ثابتة خالدة والفروع الجزئية متغيرة.

ولكن تثبيت غير الثابت يورث التعنت والإنكفائية على الذات ويحرم من استصحاب مكارم أخلاق المجتمعات والمفيد من ثقافاتها، مثل: «حفر الخندق، تأبير النخل، تغيير موقع عسكرة الجند للحرب، العبرة من قصص الأمم السابقة، وأحياناً شرع من كان قبلنا من أمم المرسلين».

أما التهاون فى الثابت فهو يفضى إلى دونية الأمة وتحللها ومسخها، ثم ذوبانها فى غيرها.

فأكثر الثابت من الدين له ما يؤيده من أحكام مصدرها الكتاب الكريم والسنة النبوية الصحيحة والحسنة. ولم يفرط الصوفية فى مثل هذه الأحكام القطعية. أما المتغير من الدين فجله فى فضائل الأعمال، تلك الفضائل التى توخى منها الصوفية المزيد من تزكية النفس وقيادها إلى مقام الإحسان، وهنا عمل الصوفية بأحاديث رآها غيرهم ضعيفة، ولو سلمنا - جدلاً - بضعفها فقد أجاز العلماء (أمثال الإمام النووى وغيره) العمل بها فى فضائل الأعمال وفى الترغيب والترهيب،

ومن شرائط العمل بالضعيف أن يكون متفقاً عليه، وأن يكون

مندرجاً تحت أصل عام، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته لئلا ينسب للنبى صلى الله عليه وسلم ما لم يقله.

ومن هنا ندرك قيمة التصوف الذى جمع أهله وسطية الفقه حيث لا إفراط وتشديد ولاغلو فى ثوابت الدين، وحيث لا تفريط وتهاون أو تحقير لمعروف وفضيلة ولو صغر شأنهما.

فبالتصوف الذى يقوم على مقام الإحسان ويتسع صدره لكل سالك، نكتسب السماحة والتسامح ووسطية الإسلام.

ومما تقدم نخلص إلى أنه تتجلى وسطية التصوف فى جمعه بين الشريعة والحقيقة، حيث تنصهر فيه مقامات الإسلام والإيمان والإحسان. فالتصوف يجمع بين إصلاح الظاهر وإصلاح الباطن، إذ أن الظاهر الصالح داخل الباطن الخرب يُخْشَى على صاحبه من النفاق، بينما الباطن الصالح الذى لا يقوم على ظاهر الشريعة يقود حتماً إلى الزندقة، ولن يتحقق إلّا من جمع بين الشريعة والتصوف، وقد قال الإمام الشافعى: (٧٨)

فقيهاً وصوفياً فكن، ليس واحداً
فـإنـى، وحـــق الله، إيـاك أنـصـــح
فـذلك قـاسٍ لـم يـذق قـلبه تقـىً
وهذا جهول، كيف ذو الجهل يصلح

فالتصوف الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة هو الذى يقى

صاحبه من التطرف والتشبث بطرف واحد بعيد عن الوسط والتوسط والوسطية.

وأخيراً نقول للذين يتجاذبهم التطرف نحو الأطراف بعيداً عن الوسطية، مستخدمين التطرف والإرهاب وسيلة لإحقاق الحق:

إن القوة مع كل الحق، وليس الحق مع كل قوة؛ فبالحق تكتسب القوة، وليس بالقوة يحق الحق. فدين الله – وهو لا شك حق – لا إكراه فيه. فإن الوسائل غير المشروعة تفضى إلى غايات غير مشروعة.

فتعالوا ندعو أنفسنا وأنفسكم ونساءنا ونساءكم وأبناءنا وأبناءكم ثم نبتهل لله أن يعيننا على نسج مجتمع سداه القرءان الكريم ولحمته السنة النبوية الشريفة.

وهيا نعظ أنفسنا ونقوم لله جماعات ومثنى وفرادى ونعمل سوياً من أجل أن نحصن شبابنا من الانزلاق وراء أفكار لا تمت إلى ديننا الإسلامى بصلة.

وهلموا إلى كلمة سواء. كلمة تصلح ما بيننا. حروفها الحق المبين ونقاطها مسامحة المخطئين، مرقمة بعلامات الاتفاق. وليكن اتفاقنا من بعد ما كان من اختلاف إذعاناً لقوله تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. (الممتحنة ٧) .

أما فيما يتعلق بنشر الإسلام فى الغرب والشرق وكافة الشعوب

التى لم تدخل فى الإسلام فلن يتم لنا ذلك إلّا بمنهج الوسطية الذى يعكس الجانب السمح من التعامل الإسلامى مع الكافر. يكون ذلك بدعوتهم بالحسنى وترغيبهم فى الإسلام وتوليف قلوبهم بسبل الخير وإعمال البر. يكون ذلك بخطابهم خطاباً معتدلاً يسمعهم كلام الله بكل هدوء وطول نفس. وهنا ينبغى استخدام شتى وسائل الإتصال الجماهيرى (mass media) مثل الانترنت والفضائيات والأندية الثقافية والمنتديات العلمية، وبهذا يصل الصوت المسلم إلى أقصى مدى يرجى له الوصول.

وفى هذه الناحية الإعلامية ينجح التصوف نجاحاً باهراً، لأن بمقدرته استقطاب المريد والمتفرج والمستعلم والمتطلع للمعرفة - استقطابهم جميعاً لحلقة السماع الصوفى الذى عبره تبث المعرفة الدينية فى ثوب لاغلو ولا إرهاب فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

الهوامش والمصادر

١- الشيخ أحمد الصاوى، حاشية الصاوى على تفسير الجلالين، ج ٤، ص ١٦٦، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى، الجامع لأحكام القرءان (تفسير القرطبى)، تحقيق عبد الرزاق المهدى، ج ١٧، ص ٥٠، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣- عبد الرزاق الصنعانى، المصنف، ج ١١، ص ١٩٧، الحديث رقم ٢٠٣١٠، ٣٩ من منشورات المجلس العلمى.

٤- أحمد شهاب الدين بن حجر الهيتمى المالكى، الفتاوى الحديثية، ص ١٧٨، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابى الحلبى، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٥- الشيخ أحمد الصاوى، حاشية الصاوى على تفسير الجلالين، ج ١، ص ٩٤، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٦- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم (بشرح النووى)، كتاب الإيمان، ٦٩ باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، ج ٢، ص ١٨٣، الحديث رقم ٢٣٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى، الجامع لأحكام القرءان (تفسير القرطبى)، تحقيق عبد الرزاق المهدى، ج ٢، ص ١٤٨، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٨- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، كتاب الجنائز، ٨٥ باب ثناء الناس على الميت، ص ٢٣٧، الحديث رقم ١٣٦٧، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٩- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، ١٥ كتاب الجنائز، ص ٥٠٣، الحديث رقم ٣٢٣٣، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٠- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، كتاب الإيمان، ص ١١٧٩، الحديث رقم ٦٦٢٤، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

١١- نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان الهيثمى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب علامات النبوة، باب ما يحصل لأمته صلى الله عليه وسلم من استغفار بعد وفاته، ص ٤٢٧، الحديث رقم ١٤٢٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٢- أبو عبد الله أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ص ٨٥١، الحديث رقم ٣ / ١٣٥، ١٢٤٠٨ (١٢٣٨١)، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤ م.

١٣- أحمد بن أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، ص ١١، قاعدة ١٣، مكتبة النجاح – طرابلس (ليبيا) ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، و الشيخ عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ١٧، دار العرفان، حلب (سوريا)، ط ١١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٤- العز بن عبد السلام، كتاب زبد خلاصة التصوف، ص ١١، مطبعة تاج، طنطا، ١٩٩٥م.

١٥- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم (بشرح النووى)، كتاب الإيمان، ١ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ج ١، ص ١٥٧، الحديث رقم ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣٨١، دار

الكتب العلمية، بيروت.

١٧- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، ص ٢٨١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٨- أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٣٨، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠ - ١٩٨٠م.

١٩- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، ص ١٢٨، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٠- المصدر السابق، ص ١٩١.

٢١- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، ص ٧٧، الحديث رقم ٢٦٣٦، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢٢- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، ص ١٦٤، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٣- عبد المنعم الحفنى، الموسوعة الصوفية، ص ٧٩٤، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦م.

٢٤- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، ص ١٩٥، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٥- أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى، إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص ١٠١، دار الفكر، بيروت.

٢٦- أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى، فضائح الباطنية، ص ٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٧- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٥٣٨ - ٥٧٨، دار الفكر العربى، القاهرة ، ١٩٩٦ م .

٢٨- عبد المنعم الحفنى، الموسوعة الصوفية، ص ٨٧٠، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦م.

٢٩- أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى، المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، حرف الراء، ص ٣٠، الحديث رقم ٥٣٠، مكتبة الخانجى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٣٠- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، ٣ كتاب العلم، ١١ باب ما كان النبى يتخولهم بالموعظة والعلم لكى لا ينفروا، ص ٢٠، الحديث رقم ٦٨، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٣١- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، صحيح مسلم (بشرح النووى)، ٤٧ كتاب البر واصلة، ٣ باب الرفق، ج ١٦، ص ١٤٧، الحديث رقم ٢٥٩٤/٧٨.

٣٢- عبد الرحمن محمد عبد الماجد ود الكبيدة، الإعلام عند الصوفية، ص ٩٨، مطبعة حصاد، الخرطوم، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٣٣- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، صحيح مسلم (بشرح النووى)، ٣٤ كتاب الصيد والذبائح، ١١ باب الأمر بإحسان الذبح، ج ١٣، ص ١٠٦، الحديث رقم ١٩٥٥/٥٧.

٣٤- محمد عبد الله الجردانى الدمياطى، شرح الجردانى على الأربعين حديثاً النووية، الحديث رقم ١٧، ص ٩٩، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٥- الخليفة الشيخ أحمد بن الشيخ دفع الله الصائم ديمه، سياحة روحية فى منهج الصوفية، ص ١١٤ – ١١٧، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٣٦- أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الهجويرى، كشف المحجوب، ترجمة محمود أحمد ماضى أبو العزائم، ص ١٣١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٣٧- الشيخ دفع الله الصائم ديمه، ديوان الشيخ دفع الله الصائم ديمه، تحقيق وشرح عبد الرحمن محمد عبد الماجد ود الكبيدة، ص ٥٨، مطبعة البشير، الخرطوم، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٨- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، المعجم الأوسط، ج ٥, ص ٢٤٧, الحديث رقم ٤٨٨٦، دار الحديث، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

٣٩- الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ص ١٤٨٠، الحديث رقم ٥ / ٤١ ، ٢٠٦٩٠ (٢٠٤١٩). بيت الأفكار الدولية، بيروت.

٤٠- المصدر السابق، ص ٧٥، الحديث رقم ١ / ٨٣، ٦٢٨.

٤١- محمد بن سعيد البوصيرى، ديوان البوصيرى، شرح وتقديم أحمد حسن بسج، ص ١٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٢- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، دلائل النبوة، ج ١، ص ٣٧، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٣- عبد المنعم الحفنى، الموسوعة الصوفية، ص ٧٧١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٦م.

٤٤- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى، الجامع لأحكام القرءان (تفسير القرطبى)، تحقيق عبد الرزاق المهدى، ج ١٩، ص ٢٤٩، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٤٥- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، ص ٤١، الحديث رقم ٢٥٤٦، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤٦- عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، سنن الدارمى، ج ١، ٣ كتاب الصلاة، ص ٢٨٠، الحديث رقم ١٢٢٣، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م .

٤٧- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، تفسير القشيرى المسمى لطائف الإشارات، ج ١، ص ٤٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤٨- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرءان العظيم، ج ٢، ص ٣٨٦، مؤسسة المختار، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٤٩- المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٦.

٥٠- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، ص ٢٦٠، الحديث رقم ٥١٣٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٥١- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، المعجم الأوسط، ج ٣، ص ٢٨٥، الحديث رقم ٢٩٥٦.

٥٢- أبو القاسم عبد الكريم القشيرى، الرسالة القشيرية، ص ٢٣١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٣- المصدر السابق، ص ٢٤١.

٥٤- المصدر السابق، ص ٢٣١.

٥٥- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، كتاب

الآذان، ص ١٣٣، الحديث رقم ٧١٩، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٥٦- أبو القاسم سليمان ابن أحمد الطبرانى، المعجم الأوسط، ج ٨، ص ٧٨، الحديث رقم ٧٩٠٦، دار الحديث، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

٥٧- أحمد بن أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، ص ٣٢، قاعدة ٥٥، مكتبة النجاح، طرابلس (ليبيا)، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٥٨- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، أبواب البيوع، ج ٢، ص ٣٤١، الحديث رقم ١٢٢٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٥٩- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، كتاب الأنبياء، ص ٦١٠، الحديث رقم ٣٤٤٥، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٦٠- السيد محمد بن علوى، التحذير من المجازفة بالتكفير، ص ٤١، سلسلة إيضاح مفاهيم السنة النبوية «٤»، بدون تاريخ.

٦١- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، أبواب تفسير القرءان، ص ٢٦٨، الحديث رقم ٤٠٢٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٢- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، ١٩ كتاب العلم، ص ٥٦٢، الحديث رقم ٣٦٥٢، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٦٣- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٣.،

ص ٢٤٠، الحديث رقم ٢٠٥٥، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٤- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، صحيح البخارى، كتاب التفسير، ص ٩١٧، الحديث رقم ٩٤٧٠، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٦٥- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، أبواب الإيمان، ص ١٣٢، الحديث رقم ٢٧٧٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٦- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، المعجم الأوسط، ج ٣، ص ٢٥٢، الحديث رقم ٢٨٦٥، دار الحديث، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

٦٧- أبو القاسم محمد بن إسماعيل الأصفهانى، الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٢٩٥، دار الحديث، القاهرة، ط ١ .

٦٨- جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطى، الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة، ص ٥٥، الحديث رقم ٦٣، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م وقال أخرجه الترمذى والحاكم.

٦٩- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ١٧ كتاب الفتن، ج ٢، ص ١٣٢٢، الحديث رقم ٣٩٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٠- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ٨ كتاب الفتن، ج ٢، ص ١٣٠٣، الحديث رقم ٣٩٥٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧١- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، الأدب المفرد، ص ٢٢٨،

الحديث رقم ٣٢٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٢- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، سنن الترمذى، ج ٤، أبواب الإيمان، ص ١٣٢، الحديث رقم ٢٧٧٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٧٣- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، ٣١ كتاب الملاحم، ص ٦٥٥، الحديث رقم ٤٣٤١، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٧٤- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، سنن النسائى، ١ كتاب المناسك، ص ٦٣٨، الحديث رقم ٢٦١٥، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م..

٧٥- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، ٣٥ كتاب الأدب، ص ٧٣٢، الحديث رقم ٤٨٣٥، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م.

٧٦- محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، ج ٢، ص ٥٥٣، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٩ هـ

٧٧- أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، ٣٥ كتاب الأدب، ص ٧٤١، الحديث رقم ٤٨٩٩، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٨- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى، ديوان الشافعى، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، ص ٦٦، دار ابن زيدون، بيروت، بدون تاريخ.

مسرد المحتويات

* **الآية والحديث الشريف** ٣

* **الشعر** ٤

* **افتتاحية** ٥

* **الفصل الأول: الوسطية والشهادة فى الإسلام عامة**
- المبحث الأول: الوسطية ٧
- المبحث الثانى: الشهادة ١٥

* **الفصل الثانى: الوسطية والشهادة فى التصوف**
- المبحث الأول: تعريف التصوف ٢٢
- المبحث الثانى: وسطية الإسلام فى التصوف ٢٤
- المبحث الثالث: الشهادة فى التصوف ٣٤
- المبحث الرابع: وسطية: لا رهبة لا ارهابية ٤٣

* **الفصل الثالث: منغصات الوسطية والشهادة** ٥١

* **وبعد** ٥٨

* **الهوامش والمصادر** ٦٧

* **مسرد المحتويات** ٧٦